قضية المنهجية في الفكر الإسلامي

أ. د. عبد الحميد أبو سليمان

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م


بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف في سطور

د . عبد الحميد أبو سليمان

من مواليد مكة المكرمة (شوال ١٣٥٥ هـ ديسمبر ١٩٣٦م) .

أنهى دراسته الثانوية فى مكة عام ١٩٥٥ م ، ثم حصل على بكالريوس العلوم السياسية عام ١٩٥٩ من كلية التجارة جامعة القاهرة ، ثم على شهادة الدكتوراه فى العلاقات الدولية من جامعة بنسلفانيا ـــ ولاية فيلاديلفا عام ١٩٧٣ .

وقد خدم الدكتور أبو سليمان كسكرتير تنفيذى فى مجلس التخطيط الأعلى السعودى (١٩٦٣ - ١٩٦٤) . وفى عام ١٩٦٤ التحق بجامعة الرياض كمحاضر بكلية التجارة ، وبعدها فى مدرسة العلوم الإدارية ، ثم عين كرئيس لقسم العلوم السياسية من عام ٨٢ - ١٩٨٤ . بعد ذلك تحصل على اجازة لمدة عامين عمل خلالها كمدير عام للمعهد العالمى للفكر الإسلامى(IIIT) والذى يقع مقره الرئيس فى واشنجطن وذلك حتى عام ١٩٨٦ .

كما كان مؤسسا وعضوا فى مجلس إدارة جمعية علماء الاجتماع لعدة سنوات ،وسكرتيراً عاماً مؤسساً للندوة العالمية للشباب الإسلامى(WAMY) من عام ١٩٧٣ - ١٩٧٩ .

هذا وقد لعب الدكتور عبد الحميد أبو سليمان دوراً رئيسياً فى بداية نشاط الحركة الطلابية الإسلامية فى أمريكا الشمالية بمساعدة زملائه المسلمين هناك وذلك عن طريق تطوير منظمة الشباب المسلم فى أمريكا وكندا ، وقد أصبحت جمعية الطلبة المسلمين(MSA) –من خلال الجهود التى بذلها – واحدة من أكثر الجمعيات الإسلامية حيوية واستنارة وتأثيراً فى داخل أمريكا وخارجها ، كما أن للدكتور عبد الحميد أبو سليمان رؤية وتجربة نظرية وعملية فى شئون العالم الإسلامى حيث أنه يمارس العديد من النشاطات فى المجال الأكاديمى والتعليمى والشبابى والثقافى من خلال المنظمات الطلابية الإسلامية .

أولاً : المنهج التقليدى للفكر الإسلامى ، تقيم ونقد

يمثل علم أصول الفقه المنهجية الأساسية فى دائرة الدراسات الإسلامية . ولقد سُمى بالمنهج التقليدى نسبة إلى القائمين على الدراسات الإسلامية فى العصور اللاحقة لعصر الخلافة الراشدة وعصر الاجتهاد اللاحق ، وقد اتخذ موقف المتابعة والتقليد وانتهجوا الفكر الإسلامى فى العصرين المذكورين . ولقد أدت السياسة التى سيطرت على دوائرهم فى ذلك الحين إلى انصرافهم إلى التأليف والبحث فى نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ومايتعلق بشئون الأفراد من عبادات ومعاملات.، وبذلك أدت المنهجية المقصود منها وبقيت كلياتها صالحة لمزيد من النمو والعطاء وكان حرِّياً بالأجيال اللاحقة أن تتابع المسيرة بروح الأصالة لا التقليد .

● ولقد تبلور علم أصول الفقه على يد طبقة كبار العلماء بعد زوال دولة الخلافة الراشدة . ويقوم هذا العلم على مجموعتين من الأصول : الأصول السياسية وتتكون جوهرياً من الكتاب الكريم والسنة النبوية والإجماع القياسى . والأصول الفرعية وهى مجموعة من القواعد والمصادر التى يقوم عليها الاجتهاد الإسلامى وهى تتفاوت من مذهب لآخر من حيث العدد والأهمية . ومنذ ذلك الحين قسمت العلوم

قدم هذا البحث إلى مؤتمر قضايا المنهجية والعلوم السلوكية إلى الخرطوم ، يناير ١٩٨٧

الإسلامية إلى علوم شرعية وغير شرعية . وترتكز العلوم الشرعية إلى الكتاب والسنة وقسمت إلى علوم : التفسير والحديث والفقه والعقيدة أو الكلام واللغة العربية . وكان لدخول علم العقيدة فى دائرة الدراسات المقارنة ، وتسلل المنطق الفلسفي اليونانى إلى دائرته ، فضلاً عن عزلة علماء الشريعة بعيداً عن ممارسة الحياة السياسية والاجتماعية ماجعل هذا العلم مصدر ضعف وبؤرة استنزاف فى فكر الأمة الإسلامية .

● الأصول الأساسية ●

وأول الأصول الأساسية هما الكتاب والسنة . ويلاحظ أن مؤهلات دراستهما هى مؤهلات نظرية وتاريخية مما سبب غلبة المنهج اللغوى الجامد على الدراسات الإسلامية ، وانقطاع الاجتهاد فى العصور المتأخرة وكان لأسلوب دراسة شيخ الإسلام « أحمد بن تيمية » وممارسته الحياة الاجتماعية والسياسية أثراً فى قدرته على الاجتهاد بعد انقطاع قرون من قبله وكذلك من بعده مما أهّله للنظر الموضوعى لا اللغوى البحت . ويلاحظ على دراسات الكتاب والسنة مدى الخلط والجدل بينهما وقد سيطر على هذه الدراسات الجمود التاريخى ومنهج النسخ .

والمقصود بالإجماع الأصولى هو الإجماع المطلق الذى لايترك مجالاً لمعارضة أو اختلاف من أى أحد ، وبالتالى لايمكن أن يتحقق إلا فى الأساسيات التى جاءت بها النصوص ، وليس هناك من حاجة لأى إجماع أمام دليل النص . فالإجماع الأصولى هو مفهوم نظرى أكاديمى

بحت لايمثل فى الحقيقة مصدراً يعتد به ولا أسلوبا للعطاء الإسلامى والاجتماعى والسياسى والحركى .

ويقصد بالقياس البحث عن العلة المشتركة بين الحوادث التى لم تقع فى عهد الرسالة ، ولم يرد بشأنها أى نصوص فى الكتاب أو بالسنة — وبين نظائرها مما وقع فى عهد الرسالة ، والتى يتوحد بها الحكم فى الحالين وذلك مع ثبات الصورة الكلية للمجتمع كأساس لأداء أصل القياس بشكل سليم . ومع اتساع رقعة أرض الإسلام وشعوبه منذ عهد الخليفة « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه ، نجد أن المجتمع قد تطور وتغير تغيراً كلياً من مكان لآخر عبر الأراضى الإسلامية ، ومن هنا نجد أن تطوراً أصوليا جديداً قد نشأ وترعرع فى أرض العراق وفارس — حيث أصبحت قاعدة للدولة العباسية — ألا وهو الإستحسان ويأتى الإستحسان على رأس قائمة الأصول الفرعية . وبذلك أمكن للمشرع أن يتخطى النظر الجزئى إلى النظر الكلى ، والحكم بما تمليه عليه روح الشريعة . وهكذا نجد أن الأصول الفرعية إنما تمثل الشق الأساسى الثانى فى منهجية الفكر الإسلامى .

وكان لبدء الصراعات السياسية فى الدولة الإسلامية إبان الفتنة الكبرى وقيام الدولة الأموية ، وماترتب عليه من العزلة بين الزعامة السياسية والزعامة الفكرية الإسلامية أثره فى تدهور عطاء الفكر الإسلامى من الاجتهاد والمبادرة والإبتكار فى مرحلة مبكرة من تاريخ الأمة . ولاشك أن جهود العلماء الفردية الشخصية كان لها أثرها فى

إثراء الفكر الإسلامي ، ولكنها لم تكن تمثل خطة علمية منهجية منظمة فى ضوء توجيه النصوص الإسلامية . وانعكس ذلك على منهج الفكر الإسلامى وعلومه التى انغمست فى الدراسات الوصفية والنقلية والمنهج اللفظى ومايتعلق به من علوم اللغة والأدب . ولقد أدى هذا علمياً إلى توزيع حياة الأمة إلى قسمين : أحدهما شخصى ، وقد اهتم بهذا الجانب الفكر الإسلامى ومنهجه متمثلاً فى علمائه ، والآخر عام ، واستبد به الحكام والسلطات والمؤسسات العامة ، مع إهمال العلماء والمفكرين الإسلاميين وتجاهلهم ، واتسمت نظرة هؤلاء إلى الحكام بالشك وعدم الثقة وانعدام الشرعية . وتحت تأثير هذا الواقع المنحرف فى مسيرة الأمة وتدهور مؤسساتها نجد أن جوهر الفكر الإسلامى قد تحول أداؤه من تنشئة وتكوين أفراد الأمة إلى إرهاب فكرى وإخضاع تمارسه القيادات السياسية والإجتماعية والفكرية فى صور مختلفة . ونتيجة لهذا الانفصام والصراع قامت معركة وهمية بين الوحى والعقل نجم عنها انفصام فكرى خطير بين علم العقيدة وعلم الفقه وترك آثاره على العلاقة بين الدين والحياة الاجتماعية . وتخصص علم العقيدة فى الخوض المنطقى والفلسفى والعقلى فى شئون عالم الغيب ، وانتهى الفكر الإسلامى إلى متاهات فكري تركت آثاراً سلبية فى تكوين النفس الإسلامية فيما يعرف بقضايا القضاء والقدر ، وكان أن حرم الفقه الإسلامى من قاعدته العقيدية التنظيرية وبدونها لايمكن للفكر الإسلامى أن يواصل مسيرته الاجتهادية التنظيمية .

ومن قضايا المنهجية التقليدية للفكر الإسلامى قضية النسخ بشأن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة حيث يثبت الحكم فقط للنص اللاحق بغض النظر عن الحال والزمان الذى يتعلق به البحث والدراسة . ونلاحظ هنا أن مفهوم النسخ التقليدى بمعنى التعارض والإلغاء إنما يعكس منهجاً جديداً يصدم حس الدارس والمفكر الإسلامى ، حيث يتعرض لمبادىء أساسية فى الوحى والرسالة بالإلغاء وفى هذا إلغاء لمعنى الرسالة وأبدية توجيهها ودفعها إلى أضيق السبل . ويقضى كذلك بقصور أحكام الشريعة على مجتمع المدينة المنورة ودولته فى مرحلته الأخيرة من ختام حياة الرسول (ﷺ) بعد الفتح وسمى (العهد المدنى الثانى) ، وفى ذلك تجاهلاً للقسم الأول والثانى من العهد النبوى وهما « العهد الملكى » و « العهد المدنى الأول » .

ومن أمثلة الآثار السلبية لهذا المفهوم التقليدى للنسخ قضية مفهوم العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين ، حيث نزلت آية السيف فى نهاية (العهد المدنى الثانى) تأمر المسلمين بقتال المشركين لإصلاح حالهم وتهذيب نفوسهم ، ويرى البعض أنها قد نسخت ماقبلها من آيات التسامح مع المسالمين من غير المسلمين ، وهذا ينتهى بنا إلى إلغاء مفاهيم الدعوة فى توخى معاملة المثل ويصبح التسامح أمر خاص ، بينما يصبح تضييق مفهوم حرية العقيدة هو القاعدة . ويتضح هنا أن مجرد تعارض الأحكام والنصوص الظاهرة لايعنى بالضرورة النسخ والإلغاء . وإنما يعنى أن الحياة الإنسانية فى أوضاعها المختلفة تحتاج إلى مواقف وأحكام

مختلفة . والخطأ السابق فى المفهوم التقليدى للنسخ يتجلى أيضاً فى انقسام الفكر الإسلامى المعاصر بشأن استراتيجية أعمال الدعوة والتشريع الإسلامى وعلاقة ذلك بقضية المرحلة الملكية والمرحلة المدنية ، حيث يرى بعض المفكرين أن المسلمين يعيشون بشأن الشريعة والأحكام المرحلية الملكية ، بينما يرى البعض الآخر أن تشريعات العهد المدنى وأحكامه واجبة الاتباع وناسخة لكل مايتعارض معها مما سبق . ولاينفى نزول نصوص قد نسخت نصوصاً أخرى فى القرآن الكريم مثل تحويل القبلة ، أنه يجب أن تكون النظرة حية شمولية فى ضوء مقاصد الشريعة وكلياتها ولامجال للقول بمرحلة مكية أو مدنية .

● قضية الربا مثال بارز

ومن الأمثلة البارزة التى تعكس قصور المنهجية التقليدية قضية الربا ومفهومه ويرجع ذلك إلى جزئية النظر ومحدودية الخبرة الاقتصادية لدى الكثير من قيادات الفكر الإسلامى مما أدى إلى تعدد وجهات النظر حتى جاوز عددها أكثر من عشرين مذهبا اتسمت بعضها بالانتقائية وتجاهل بعض الأحاديث الهامة الصحيحة مثل حديث « أسامة بن زيد » فى قصر الربا على ربا النسيئة وكذلك لجوء بعض المذاهب إلى طلب الحيل والإلتفاف حول النصوص كما فى حالة حديث « رافع بن خديج » بشأن المزارعة ، وقد أخذ رجال الخبرة الإقتصادية مواقعهم أخيراً فى ميدان دراسة الاقتصاد الإسلامى مما يبشر بالإصلاح فى هذا المجال إن شاء الله .

ومن أمثلة قصور الممارسة المنهجية التقليدية أيضاً إضفاء القدسية على أقوال الصحابة والتابعين وعلماء السلف رضوان الله عليهم ، والحاق أقوالهم واجتهاداتهم بالسنة والوحى رغم تأكيدنا النظرى أنه لاقداسة إلا للوحى . وانقلب أجلالنا لأولئك الرجال إلى مفهوم قدسية يحول أحياناً بيننا وبين الإصلاح والنمو ولم يترك لنا إلا الخيار بين التقليد أو الإنفلات والضياع . وأصبح أى فكر معاصر شمولى أصيل فكراً مشبوهاً ومرفوضاً لدى الكثير من أصحاب الفكر التقليدى . ويجدر بنا الإشارة إلى قضية منهجية هامة تتعلق بنصوص السنة النبوية المطهرة التى مازالت تستعصى على عامة علماء المسلمين رغم مضى هذه القرون على عهد النبوة . فلا مجال إلى الإصلاح الفكرى المنهجى الفعال إلا بحصر وضبط أعمال السنة النبوية المطهرة وتبويبها ميسرة حتى يتمكن عامة العلماء والمختصين من الإنتفاع بها فى يسر وثقة فى كافة مجالات العلوم والأعمال . وماينطبق من السنة المطهرة ينطبق أيضاً على أعمال التراث من حيث ضرورة التيسير وعرض السليم المفيد منه بعيداً عن فكر القداسات حتى يصبح التراث عوناً للفكر الإسلامى المعاصر .

ولعلنا فى نهاية هذا التعريف الناقد السريع لبعض قضايا المنهجية الإسلامية التقليدية يجدر بنا أن نتساءل كيف لنا أن نفهم أبعاد قضيتنا فى إطارها الصحيح ونعيد توجيهها إلى المسار السليم ؟ إن ما أصاب سيرة الإسلام من نكسات وأدى إلى سقوط الخلافة الراشدة ، لايرجع فى جوهره إلى الفكر الإسلامى أو إلى خطوات وتجاوزات القيادة الإسلامية ، وإنما يرجع فى الدرجة الأولى إلى تدفق الأمم والشعوب من

كل أرجاء المعمورة فى دفعة هائلة إلى الإسلام ومجتمعه بكل ماعلق فى نفوسهم من ثقافات وجاهليات استحال معه إيجاد المؤسسات والطاقات اللازمة حتى يمكن أن تستوعب الأمة الإسلامية هذه الأفواج من القبائل والشعوب وتؤهلهم على ماكان للأولين من تربية والتزام . وهكذا تضافرت آفات تلك العصور والأحقاب وجاهليتها فى إيقاف المسيرة وحجب العطاء . فمن المهم أن نتحرك من فترة التقليد للغرب وهمجيته الاستعمارية على مختلف الجبهات ، وكذلك التلفيق من خلال الإنكباب على النصوص وطلب المخارج اللفظية فيها للإستجابة إلى محاكاة الغرب وتقليده حتى أصبحت منهجية الفكر الإسلامى منهجية لفظية تدور فى دائرة النظر اللفظى فى النصوص بعيداً عن التفهم والمتابعة العلمية وهو ماتنكره الأصالة الفكرية .

إن علينا أن نتذكر أن ماحققه الفكر والمنهج الإسلامى من إنجازات قامت عليها دعائم الحضارة الإسلامية السالفة هو الذى دفع بالإنسانية وأمم العالم من حولنا دفعة حضارية فى جميع المجالات دينية كانت أو علمية أو اجتماعية أو فكرية ، فمن أهم ماوهبه الإسلام للإنسان المعاصر هو تكامل مصادر معرفته بتوثيق الوحى وحفظه وتحرير العقل وإطلاق عقاله . وإن حماية العقل المسلم ومنهجه هو حماية للدين والشريعة والإنسان المسلم . والمطلوب هو أن نعى ماضينا لنأخذ منه العظة والعبرة ولنجعله مصدر قوة لنا لامصدر ضعف حتى يمكننا التحرك دائماً للأمام ونعيد بذلك للدين والأمة طاقتها وريادتها بإذن الله

ثانياً : أسس وقواعد منهجية الفكر الإسلامى

ألقينا فيما سبق نظرة تعريف ونقد موجز على الإطار التقليدى لمنهج الفكر الإسلامى ، وأوضحنا المشاكل التى يعانى منها ، وأشرنا إلى بعض الآثار السلبية الناجمة عن الخلل والقصور الذى أصاب بنيته بمضى من الزمن منذ عهد الرسالة ونزول الوحي ، ولاحظنا أن العقل المسلم والمنهج الأصولى قد قدما للإنسانية تراثاً وفكراً حضارياً غير مسبوق ، أضاء حلكة الأفق الإنسانى كله . ومع تعاظم الهوية بين الغاية الإسلامية والإلتزام الإسلامى ضعف الأثر الإسلامي . وبالرغم من تدهور أوضاع الأمة الإسلامية فإنها ظلت خيراً من سواها لانعدام التحدى الحضارى حينذاك ، ثم أصبحت مرغمة على إعادة النظر فى أحوالها وقواعدها ومناهج فكرها مع بروز التحدى الغربى وأمام تعاظم المخاطر الناجمة عن الأمراض الحضارية لأمم الغرب . فقد ثبت لكل ذى عقل أن المعالجة الفكرية السطحية لم تعد تجدى مع ماتعانيه أمتنا الإسلامية لأن مسئولية هذه الأمة هى مسئولية مقدسة أمام الذات والتاريخ . ولقد بنيت الحضارة الغربية على تراث الحضارة الإسلامية حيث جاس الغربيون أرض الإسلام ودرسوه فى الجامعات والمكتبات الإسلامية ويشهد عليهم فكر عصر النهضة الأوربية ، ثم أخذهم الغرور وظنوا أن قدراتهم وطاقاتهم إنما تنبع عن فضيلة ذاتية ترجع إلى تراثهم الوثنى الخرافى ، وبدأت معاناة الغرب وأمراضه الإجتماعية والصحية والنفسية وعدم الإلتزام الأخلاقى فى ميدان العلم والسياسة مما هدد كيانه من الداخل

والإنسانية قاطبة من الخارج ، ولم يعد أمام إنسان هذا العصر والأمة الإسلامية خاصة إلا الإسلام لإعادة التوازن والسلامة إلى مسيرة الإنسانية والحضارة ، ولفهم منهجية الإسلام فى الفكر والحياة نبدأ أولاً بالبحث فى الإطار الكلى لهذه المنهجية :

(١) إطار منهجية الفكر الإسلامى ومعارفه : (تكامل الغيب والشهادة) :

من المهم جداً فهم الإطار الأشمل للحياة والوجود ، ومفهوم الغيب والشهادة فى الإسلام هو الذى يحدد معنى الوجود وعلاقة ذلك بما وراء الحياة والمادة . فعالم الغيب يختص به الله سبحانه وتعالى وحده ، يوحى بما يشاء لمن يشاء من رسله هداية للأمم . ويمكن تلخيص أهم مبادىء عالم الغيب ومعطاياته إلى الإنسان فيما يلى :ـــ إن الوجود لم يخلق عبثاً وله غاية أخلاقية خيرة من خلال علاقات أزلية لاتدركها طاقة العقل الإنسانى ، وأهم معطيات عالم الغيب الإنسانى هو وجود الله سبحانه وتعالى الواحد الأحد الذى خلق الحياة الدنيا والدار الآخرة وخلق الإنسان ووهبه إراداته وحرية قراره إلى الخير والشر إلى الهدى أو الضلال حين وهبه العقل وكرمه بمركز الخلافة فى الأرض متقدماً على كافة الكائنات التى سخرها له . وفطر الأحياء جميعاً على سنن وأسباب تستلزم الإرادة والعزم لبلوغ هذه الأسباب وتحقيق الغايات ، وهذه هى مسئولية الإنسان المؤمن لأداء الأمانة والقيام بمسئولية الخلافة والإعمار والعمل فى الأرض متوكلاً على الله إيماناً وثقة بحكمته سبحانه وتعالى

وعدله ورحمته . ومؤهل الإنسان لهذه الخلافة هو العلم ، والعقل أداة العلم ووسيلته فى عالم الشهادة على هذه الأرض . والوحى هو المصدر الإلهى الذى يمد الإنسان بحاجته من علم بشئون الغيب وغاياته وعلاقة الإنسان بهذه الغايات . وبهذا المفهوم يتكامل الوحى والعقل لتحديد موقع الإنسان فى عالم الغيب والشهادة وتمكين وجوده وسعيه من تحقيق الغاية منهما فى عالم الشهادة . ولامجال فى الرؤية الإسلامية لتعارض الوحى والعقل والكون . والسعى والإذعان لما جاء به الوحى من الحق هو الذى يميز بين العقل والعلم الخير وبين العقل والعلم الفاسد . إن العقل المسلم لكى يسترد عافيته عليه أن يستعيد رؤيته الإسلامية الكاملة المبنية على التوحيد والوحدانية حيث يتوحد الغيب والشهادة والوحى والعقل والكون ، وبذلك ترشد مسيرة الإنسان المسلم ويتحقق له وعد الله بالقدرة والنصر .

(٢) مصادر الفكر والمنهجية الإسلامية : (الوحى والعقل والكون) :

إن الوحى كمصدر للتوجيه الإسلامى هو كلمة الله وإرادة الحق التى أوحى بها إلى نبيه ورسوله محمد ﷺ ليبلغها إلى الناس كافة . وجوهر مايقدمه الوحى للناس هو توضيح طبيعة علاقة الإنسان بالله وغاية وجود الإنسان فى الكون ودليل حركة الإنسان فى الحياة ومصير هذا الإنسان فيما وراء الحياة . فعلاقة الإنسان بالله هى فى أصلها علاقة

تعبيد وتذليل لاعلاقة استعباد وإذلال علاقة خلافة وكرامة . ونلمس هذه الآفاق والأبعاد والقيم فى شخصية الرسول الكريم وأصحابه الكرام قبل أى أحد آخر من الخلق . والعقل هو موجه الإنسان ودافعه ووسيلته إلى إدراك موقعه وغايته من الحياة ووسيلته فى طلب علم الغيب والتلقى عن رسالات الوحى . وهو الذى يميز بين الوحى الخير الصحيح الموثق وبين الدجل والخرافة والكهانة الكاذبة الفاسدة الضالة . وبما فطر الله عليه نفس الإنسان وما وهبه من عقل ركب فيه من إدراك يجعله لايجد لنفسه مندوحة فى طلب معرفة كليات هذا الوجود والوحى مصدر علم الكليات ، وبهذا يتكامل المصدران الوحى والعقل مع الكون لتمكين الإنسان من تحقيق مقاصد الخلق وأداء دور الإستخلاف ، فإذا شاءت الأمة أن تستعيد وضوح رؤيتها وعطاءها الفكرى وقدرتها الكامنة فلا مجال لخوض العقل المسلم فى قضايا عالم الغيب ولا القول فيه على غير ماجاء به الوحى ، ولامجال لتخطى دور العقل ووظيفته فى إدراك مقولات الوحى ووضعها موضع التطبيق . فى هذه الرؤية والمنهجية الإسلامية الصحيحة لامجال للإنحراف باسم العقل ، ولامجال للإستبداد باسم العقل تجاهلاً لغايات الوحى للإستبداد بتصريف شئون شعوب الأمة على غير قناعة منها ومشورة لها تمنح بها ولاءها وتحقق مصالحها ، ولامجال للحجر والوصاية الغاشمة على العقل المسلم فى جهوده الأصلية للاستنباط والاستقراء والتجريب . لقد أضاع المسلمون الكثير من طاقاتهم عبر التاريخ حين سمحوا للعقل المسلم بأن يخوض فى الغيبيات والإلهيات والسفسطات الفلسفية التى تتعلق بالكليات الربانية على غير

ماجاء به الوحي وأرشدت إليه الرسالة وصدقته الفطرة وبرهنت على كفاءة أدائه مسيرة الصدر الأول من الإسلام . إن الرؤية الإسلامية القويمة التى يتكامل فيها الوحي والعقل والكون هى التى مكنت للسلف الأول ناصية الإبداع وفتحت أمام العقل المسلم أبواب التنقيب فى سنن الحياة والكائنات وفتحت للإنسانية آفاقاً جديدة بنيت عليها الحضارة الحديثة منهجها العلمى التجريبى وإنجازاتها التى لم يعرف لها مثيل من قبل . إن العقل المسلم فى مزاولته لدوره الحضارى مشتركاً مع الوحي ومع الكون كمصادر للمعرفة الإسلامية لايخلط بين دور الخبرة العلمية الأكاديمية الشرعية الإسلامية وبين المهمة السياسية والتشريعية . فالخبرات العلمية الأكاديمية تمثل مصادراً أساسية لإمداد الأمة وقياداتها بالفكر والدراسات والأبحاث اللازمة فى بناء خططها وتوفير حاجاتها ، وكذلك فالمهمة السياسية التشريعية الناجحة يجب أن تمثل خلاصة رؤية الأمة وخبراتها بشأن إدارة شئونها كما يجب أن توظف لها مشورة أبناء الأمة كافة على مستويات مختلفة فلا تستغلق على الأمة وتحظى بتأييدها .

(٣) المنطلقات الأساسية للمنهجية الإسلامية والفكر الإسلامى :

تتميز المنهجية الإسلامية بمنطلقات أساسية تمثل الركائز التى تضىء الطريق أمام العقل المسلم ، وهذه المنطلقات هى الوحدانية والخلافة والمسئولية . وهذه المنطلقات الثلاث تشكل الخطوط الأساسية للعقل

المسلم . وفشل هذا العقل فى عصوره اللاحقة إنما يرجع إلى قصوره فى معرفة أهمية العمل على أساس هذه المنطلقات وعدم تجاهلها .

(أ) **الوحدانية** : إن العقل المسلم لايكون له وجود إلا أن يؤمن بالوحدانية كمسلّمة عقيدية فطرية على أساس من إيمانه المطلق وإدراكه البين بالله جل شأنه . وهذا المنطلق يقيم العقل المسلم على فرضية وحدة المصدر والحقيقة التى ينطلق منها كل الكون والكائنات ، وماحقق العقل المسلم من نجاح إلا وكان منطلقه فى التزام مبدأ الوحدانية ، وما تخبط العقل المسلم إلا بتجاهله وغفلته عن هذا المبدأ كدليل فكر وعمل والتزام .

(ب) **الخلافة** : والمقصود هو خلافة الإنسان فى الأرض والكون ، فالخلافة فى مفهوم العقل المسلم هى نعمة وتكريم ، والعقل المسلم مدعو من منطلق الخلافة إلى تسخير الكون والكائنات لما فيه نفعه ونفع الكون والكائنات من حوله . وأن منطلق الخلافة ومدلولها وواجباتها فى رؤية الرعيل الأول هى مصدر طاقاتهم التى لاتضاهى فأضاؤا أرجاء المعمورة .

(ج) **المسئولية الأخلاقية** : إن منطلق المسئولية إنما يمثل الوجه الآخر لمنطلق الخلافة ومفهومها فى تكوين العقلية الإسلامية ، فالخلافة ومؤهلاتها والغاية منها تحمل معها مسئولية الإنسان الأخلاقية عن هذا الدور وعن مايترتب عليه من قرارات فى تسخير الكون وإدارته . ومن منطلق المسئولية فإن العقل والضمير المسلم لايقبل إلا أن يسعى بالحق

والعدل والخير والإعمار ، وهذا المنطلق هو ضمان استقامة الفكر الإسلامي الصحيح . وهذا مايفسر لنا طاقة الحب والبذل والصبر عند الرعيل الأول للإسلام بما يضرب به المثل فى تاريخ الأمم والمجتمعات . وحتى فى عصور التخلف وأقسى ساعات ضياع الإنسان المسلم فإن مايبقى عليه ويمنعه من أن يندثر فى أغوار التاريخ هو أرق ضميره وإحساسه بمسئوليته ، وبحقيقة الوحدانية الحقة يصيب العقل وجهته وينجح ، وبأداء الخلافة الخير ينطلق العقل المسلم ويسبق ، ويحس المسئولية الراشدة ينضبط العقل المسلم ، وبهذا المنهج المتكامل يكون المسلم الراشد جاداً إيجابياً أخلاقياً دائم العطاء .

(٤) المفاهيم الأساسية للمنهجية الإسلامية :

إن مجرد معرفة مصادر المنهج والفكر الإسلامى والتوقف عند معرفة الأطر والمنطلقات إنما يمثل الجانب النظرى من الدراسة المنهجية ، ولابد لنا من معرفة المفاهيم التى يعمل هذا العقل وهذه المنهجية على أساسها ويتحرك بها وتمثل جانبه العملى والتطبيقى . كذلك لابد من تصفية هذه المفاهيم من كل ماعلق ويعلق بها من شوائب وغبش بسبب ماخالط فكر الأمة من جاهليات الأمم التى دخلت الإسلام وثقافاتها وفلسفاتها . ومن أهم هذه المفاهيم هو مفهوم غائية الخلق والوجود ومفهوم موضوعية الحقيقة ونسبية الموقع منها ومفهوم حرية القرار والإرادة ، ومفهوم كلية التوكل ، ومفهوم سببية الأداء والفعل الإنسانى .

(أ) **غائية الخلق والوجود** : إن عقيدة التوحيد ومبدأ الوحدانية هى العقيدة والمبدأ الأساسى الذى تقوم عليه العقلية المسلمة . وإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو الخالق فإن هذا يحتم أن يكون الخلق متحد المصدر ، متحد الغاية ، وهذه الوحدانية وهذه الوحدة تحتم غائية الخلق والوجود . إن فطرة التوحيد فى العقل المسلم هى دليل حركته فى التعامل مع الكائنات والأحداث الكونية من منطلق الغائية . وغائية الخلق فى دور خلافة الإنسان ومسئوليته فى إدارة الكون تحتم على العقل المسلم إدراك منطق حركة هذه الكائنات ونواميس أدائها حتى يتم حمل مسئولية إداراتها وتسخيرها على ماتقضى به غايات الخلق ومقتضيات الجهاد والخلافة .

(ب) **مفهوم موضوعية الحقيقة ونسبية الموقع منها** : إن العقل المسلم وفطرته يكونا عقلاً وفطرة مبصرة بنور الوحى وهدايته لذلك فالحقيقة لدى العقل المسلم هى حقيقة موضوعية قائمة يدرك وجودها ويدرك أبعادها ويسعى للتفاعل السليم معها ومع نواميسها وسننها . والحقيقة وإن كانت جوهراً واحداً لاتتغير ولاتتبدل إلا أن موقع الإنسان منها فرداً وجماعة هو موقع جزئى يتغير فى الزمان والمكان ، وهذا يعنى نسبية الموقع ونسبية التطبيق . والعقل المسلم والفكر المسلم برؤيته الواضحة القائمة على هداية الوحى يبقى قوياً ويجعل مواقع التفاوت والتناقض أدوات تحريك ونماء ودواعى يقظة وإبداع وتجديد .

(ج) حرية القرار والإرادة الإنسانية ومسئوليتها : إن مغزى الحياة الدنيا فى رسالة الإسلام هى امتحان لإرادة الإنسان فى خلافة الأرض ، وهل هى إرادة خيرة أم إنها إرادة خبيثة . والحياة الآخرة فى رسالة الإسلام إنما هى محصلة لآثار هذه الإرادة ونوعية مزاولاتها فى الحياة الدنيا تتلبس بها فى الأبدان إن خيراً فخير وإن شراً فشر . **ومفهوم حرية الإرادة الإنسانية وحرية القرار الإنسانى ينطوى على عدة جوانب وأبعاد هى بُعد العقيدة وبُعد الفكر الإسلامى وبُعد الأداء الإجتماعى :**

١ – بُعد حرية العقيدة : كانت حرية العقيدة هى أساس الدعوة وأساس تنظيمات الإسلام ، ودافع معارك المسلمين الكبرى ضد قوى البغى والطغيان . وحيث أن الحرية هى حق وموقف ومسئولية فيجب أن نعى شروط التأهيل لمزاولتها وأدائها فى المجتمع . فهى حق للبالغ العاقل ، وكذلك فإن النضج الحضارى قد يكون شرطاً ضرورياً لتأهيل الإنسان لمزاولة حق الحرية وخاصة حرية العقيدة ، وهذا ماسعى به الإسلام فى عصر ظهوره فى حق قبائل العرب الصحراوية الوثنية البدائية ، حيث لجأ إلى كل الوسائل لعون هذه القبائل من حمأة البدائية الهمجية . ودولة الإسلام هى ذاتها التى تضمن حرية العقيدة لرعاياها من غير المسلمين من أهل الكتاب رغم مالقيه المسلمون من كيدهم وعداواتهم . كما قرر الإسلام ذلك الحق فى نصوص صريحة أيضاً لسواهم من أهل الحضارات المؤهلين للخيار كالفرس المشركين عبدة النار .

٢ – بُعد حرية الفكر : إن بعد حرية الفكر الإنسانى هو بعد مكمل لبعد حرية العقيدة ومتولد عنه وهو مايتعلق بحرية الإرادة الإنسانية وأخلاقية القرار الإنسانى ولكن ضمن إطار الإلتزام العقيدى الأشمل . فحرية الفكر لاتعنى عشوائية القرار ولاتعنى جهالة القرار ولاتعنى جهالة القرار ، والإسلام يحرر الإرادة الإنسانية من استبداد الكهنوت وطغيانه . فحرية الفكر حق وموقف أساسى يتطلبه معنى الوجود الإنسانى وحمل أعباء مسئولية الخلافة الإنسانية فى الأرض .

٣ – بُعد حرية الأداء الاجتماعى : إن هذا البعد يتصل بمجموع الأفعال والتصرفات وتبادل المصالح والعلاقات بين الفرد والمجتمع وهو الجانب العملى فى الوجود . ويترتب الأداء الاجتماعى للإنسان على حرية العقيدة وحرية الفكر ، وهى الحريات التى تتعلق بالفرد بينما الفعل والأداء الإنسانى يتعداه إلى المجتمع وشرائحه ؛ بمعنى أن حرية الأداء والأفعال للفرد فى المجتمع يجب أن تضبط بضوابط المجتمع فى ضوء غايات الوجود الإنسانى ، كما أن ضوابط النظام العام تفقد مشروعيتها إذا لم تهدف إلى رعاية حقوق الأفراد ، فلا يصح للمشرع المسلم فى المجتمع المسلم أن يتجاوز الإسلام وقيمه فيما يشرع من أحكام .

(د) كلية التوكل : إن التوكل هو إيمان القلب المؤمن بقدرة الله وحكمته وعدله والقبول بقضائه وقدره . وتوكل القلب إنما يأتى من إيمانه بالغيب . والتوكل هو أن يتعامل المسلم مع الكليات الربانية فى الحياة من منطلق الثقة بالله والرضا والتسليم فى عواقب الأمور على

ماقضى الله وقدّر . وخلاصة عقيدة المسلم ومنهج عقليته بشأن الكليات الربانية فى الحياة هى أنها كلها فى عواقبها خير ، فهى خير بالشكر على النعمة وهى خير بالصبر على الإبتلاء . أما التواكل فهو التقصير فى أداء السعي وبذل الجهد وتدبر الأمور وهو بذلك فساد فى العقيدة وعصيان لأمر الله سبحانه وتعالى ومخالفة لمقتضى الفطرة السوية للإنسان فى وجوب السعى فى الحياة بالأسباب لتحقيق النفع والإصلاح والإعمار .

(هـ) **السببية فى أداء الفعل الإنسانى** : إن السببية هى مفهوم أساسى فى حياة الإنسان المسلم وتكوين عقليته وبناء منهج فكره ففطرة الإنسان وعقيدة المسلم توضح أن الله سبحانه وتعالى قد مكن له القيام بمسئولياته والتعبير عن إرادته بواسطة الفعل بالأسباب وماتقتضيه من علاقات السنن والنواميس . وبذلك يكون قد أدى واجبه واستجاب لفطرته وليس من شأنه فى المحصلة النهائية موقع جهده وسعيه من خارطة الكليات الربانية . وما شاهدناه فى حياة السلف الأول من جدية التدبير والتفكير والأخذ بالأسباب مع عظيم الجرأة والإقدام إنما هو ثمرة هذا الفهم وهذا المنهج فكانت القدرة وكان النصر .

(٥) مجال أداء منهجية الفكر الإسلامى : (شمولية المجال وشمولية الوسيلة) :

إن منهجية الفكر الإسلامى هى منهجية شمولية تشمل كافة وجوه نشاط الإنسان الحياتية وكافة وجوه السعى اللازم له لأداء دوره فى الخلافة .

وهذه المنهجية تتميز أيضاً بشمولية الوسيلة . فالإنسان المسلم مكلف بالسعي بكل وسيلة فى طاقته لطلب العلم والمعرفة بشئون الحياة والكائنات لتسخيرها ورعايتها . ولاقيد على الوسيلة الصحيحة الهادفة إلى الإصلاح لا إلى الخوض الضال فى شأن عالم الغيب مما لايقدر العقل الإنسانى على إدراكه ويصرف العقل المسلم عن واجباته ومسئولياته . ودون شمولية المنهج مجالاً ووسيلة فلا مجال لأداء الأمانة وتبليغ الرسالة وبناء الخلافة كما بدأت وكما أراد الله لها بهداية الدين القويم . ولابد لنا لتحقيق شمولية الفكر الإسلامي من التفريق بين مصادر ووسائل ومجالات نظر المعرفة ، فلا مجال للمؤسسات العلمية والجامعات الإسلامية فى أن تستمر محصورة فى علوم النصوص ولابد للمسلمين من أن يجدوا الصيغة المنهجية العلمية التى تقوم عليها مجالات علوم الإجتماع والتقنيات الإنسانية على أساس من الأصالة والإبداع . ولابد أولاً من تبويب نصوص الإسلام بدءاً بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وكذلك تصفية نفائس التراث الجيدة . وأن يكون هذا التبويب على أساس ماتمليه الرؤية الإسلامية المعاصرة فى مجالات الحياة والمجالات العلمية حتى يمكن أن يطلع الباحثون وأصحاب التخصص والمفكرون المسلمون على أعمال النصوص والتراث . ويجب أيضاً أن يبدأ العلماء والمفكرون المسلمون بالإعداد السليم لوضع المقدمات الإسلامية العلمية المنهجية فى كل علم ومجال ، وكذلك بتنقية كتب النصوص وإعادة عرض مادتها فى شمولية ووضوح وضبطها التاريخى واللغوى ، حتى يتمكن الدارس من استخلاص المقدمات العقيدية والفكرية فى مختلف

مجالات العلم والمعرفة والحياة ويصبح الأداء الإسلامى المبدع وليس مجرد الحماس العاطفى هو القول الفصل والحجة والبينة .

ثالثاً : المنهج الإسلامى والعلوم :

سبق أن أشرنا إلى وجوب تأصيل الدراسات والعلوم الإجتماعية والإنسانية وتأصيل المنهجية الإسلامية فى مجال العلوم الطبيعية والتقنية بحيث تتكامل مع العلوم الإسلامية النقلية ، وتوفر للفكر المسلم معرفة مرشدة بدلالة الوحى من جانب ، ومؤهلة بقدرة عطاء النظر والعقل المسلم فى الحياة والأحياء والكائنات من جانب آخر . وسنحاول هنا أن نبحث فى أمر الخطة المبدئية اللازمة للبدء فى إسلامية هذه المجالات والعلوم ومتطلبات هذه الخطة .

(١) **تبويب النصوص الإسلامية** : إن إسلامية المعرفة وإسلامية العلوم الاجتماعية لاتتحقق إلا إذا تم تنقية النصوص الإسلامية من الشوائب التى لحقتها ، وكذلك تبويبها بشكل مبسط وخاصة نصوص السنة بحيث يسهل تعامل عامة العلماء والمثقفون معها . وكذلك يجب توفير الدراسات التاريخية واللغوية التى تصنع النص فى صورته الصحية وبشكل علمى منهجى وموثق بحيث لاتختلط الشروح بالنصوص ، وذلك بتكليف هيئات علمية جادة وعلماء قادرون على أداء هذه المهمة على الوجه العلمى المطلوب . كما أن العلماء والباحثين يجب أن يتناولوا فى جدية هذه الدراسات بالنقد والملاحظة والاستكمال . كذلك يجب المسارعة إلى استخدام الحاسب الآلى وتطوير وسائله لخدمة أغراض

إحصاء النصوص الإسلامية وتبويبها وكذلك بالنسبة لكتب التراث الجيد . وبهذه النوعية من التهيئة العلمية للنصوص الإسلامية يمكن لعامة الدارسين التعامل مع النصوص والإنتفاع الكامل بها .

(٢) **شمولية الرؤية الحضارية** : إن السباق الحضارى بين الأمم أصبح يشكل تحديا للوجود الإسلامى فى هذا العصر . ولم تجد كثيراً جهود الترجمة العلمية والأدبية من أعمال الحضارات الأخرى . ولن يغير إرسال المزيد من البعثات أو إنشاء المعاهد من الصورة المؤسفة التى يعيشها المسلمون فى هذا العصر ، وذلك بسبب ماآلت إليه العقلية الإسلامية ومنهجيتها ، حيث اتسمت بضعف روح المبادرة واضمحلال الحماس النفسى والعقائدى ، وأصبحت مجبولة على المتابعة الجزئية . إن تحرير العقل المسلم من الانبهار والضياع فى خضم عباب الفكر الغربى يتطلب التعامل الواعى المستقل والإستفادة من تجارب الأمم الأخرى دون انتهاك للأسس التى يقوم عليها الفكر الإسلامى وذلك بالمفهوم الشمولى الصحيح للحضارات المعاصرة ، والإنتقاء الفكرى الواعى النافع . وهكذا يتم الإتصال الحضارى بين الأمم على مر التاريخ .

(٣) **مقدمات العلوم الاجتماعية وأسسها** : إن الربط بين الرسالة والوحى وماتتضمنه من غايات ومقاصد وبين المجالات الاجتماعية وعلومها ومناهجها إنما يبدأ أولاً بتصنيف المقدمات والأسس الإسلامية فى هذه المجالات . والمقدمات الإسلامية المطلوبة للعلوم هى من نوعين : النوع الأول منها هو مقدمات عامة تتعلق بالمبادىء العامة للإسلام

ومقاصده الرئيسية فى الحياة والأنظمة الإنسانية . والنوع الثانى يتناول المقدمات والأسس لكل علم وكل مجال من مجالات المعرفة والعلوم الاجتماعية وغير الاجتماعية . ومن المهم أيضاً فى هذه المرحلة أن تتناول هذه المقدمات معالم كل علم وقضاياه الرئيسية وأن توضح الرؤية والعطاء والغاية الإسلامية فى مجاله مقارنة بالرؤى والغايات غير الإسلامية والآثار الاجتماعية والإنسانية المترتبة عليهما فى كل الأحوال . وبمضى الزمن ورسوخ النظر الإسلامى فى مجال العلوم الحياتية والاجتماعية فإن هذه المقدمات سوف تنضج وتنضج معها ثمرة العلوم الاجتماعية وغير الاجتماعية من منظورها الإسلامى . **ومن المناسب أن نبدأ بمناقشة بعض أسس هذه المقدمات التى تميز الرؤية الإسلامية عن سواها من الرؤى الحضارية المعاصرة .**

(أ) **أبعاد الوجود الإنسانى الإسلامى** : وحدة كلية وتعدد متكامل :
إن الوجود الإنسانى فى المنظور الإسلامى إنما يمثل فرضية منهجية هامة وهى أن هذا الوجود يتميز بالتعدد المتكامل فى وحدة وكيان إنسانى موحد . ولقد فشلت المادية الفردية الغربية التى تعتمد على الهوى وتركز على الرغبات والحواس ، والمادية والجماعية الاستبدادية الماركسية التى تركز على الحاجات المادية والاقتصادية ، وكذلك ديانات الشرق الأقصى التى تزدرى الحياة والكيان الإنسانى بحواسه ورغباته وحاجاته ، فشلت هذه الأيديولوجيات المتنافرة فى تحقيق السلام النفسى والاجتماعى للأفراد والمجتمعات التى تسودها وتسيطر على مقدراتها ، وعانى الفرد فى

ظلها من الفراغ الروحى والمعاناة التى تعجز الدراسات عن مواجهتها . بينما الإنسان كما يقر الإسلام وتهدى الفطرة السليمة يتكون من مادة وروح ، له حاجاته المادية والاقتصادية وكذلك غاية وإرادة تسعى إلى السمو الروحى وقصد الخير والإصلاح . فالإسلام فى حياة الإنسان ووجوده يجعل لكل فعل مادى بعداً روحياً ، حتى أن العبادات فى الإسلام لها فوائد ملموسة فى حياة الإنسان كالنظافة فى الوضوء ، والنظام فى الصلاة والصبر والجلد فى الصيام ، والبذل فى الزكاة ، والمساواة فى الحج مع تهيئة النفس لأداء الأمانة والإعمار . وبهذا التصور فإن لحياة الإنسان الدنيوية المحدودة الموقوتة بعداً أبدياً واسعاً ، فلها مابعدها ، والموت ليس نهاية الوجود ، وإرادة الإنسان فى هذه الحياة هى موضع اختبار وابتلاء ، ومابعد الموت ليس إلا محصلة لنوعية الوجود الدنيوى . وحياة الإنسان الدنيوية الفردية بكل مايعتريها من أحداث لايمكن أن تستقر إذا لم يكن لها بعد فيما وراءها يصحح ويعدّل ويثيب ويعاقب ، كذلك فإن الإسلام بمفهوم الوحدة فى كيان الإنسان لايرى تعارضاً بين البُعد الفردى فى حياة الإنسان والبُعد الجماعى ، فكلاهما حقيقة فى كيان الفرد وحاجته .

(ب) الغاية والقصد فى نظام الكون والحياة :

إن هذا المفهوم يكون فرضية أساسية ومقدمة ضرورية للنظر الإسلامى فى كل مجالات المعرفة ، وينطلق العقل المسلم منه إلى معرفة كليات نظام الكون والحياة ويسترشد به فى توجيه البحث فى كليات الطبائع والعلاقات والسنن والنواميس .

(ج) موضوعية الحق والحقيقة فى طبائع النفوس والعلاقات الاجتماعية الإنسانية :

إن الفكر الإسلامى بمفاهيمه المنهجية فى التوحيد والإيمان بالله إنما يلتزم مقدمة أساسية فى نظره العلمى فى أى حقل من حقول المعرفة والعلم وهى أن الحق والحقيقة والصواب والخطأ والخير والشر حقائق موضوعية يجب معرفتها فى ضوء ماأودع الله الخلائق والكائنات من طبائع وسنن وفطرات . ومن هذا المنطلق فالعقل المسلم عقل علمى يسعى للمعرفة على شروطها وحسب معطياتها الموضوعية لا على أساس من الأهواء والنزوات ، لأن العقل الإنسانى وحده غير مؤهل لإدراك الحقيقة الموضوعية الكاملة والغاية الموضوعية المقصودة فى النفوس والطبائع الإنسانية ، لأن ذلك من أمور الكليات الربانية وخصائص عالم الغيب وإرشاد الوحى والرسالات الإلهية التى لابد منها لاستكمال أدوات العقل الإنسانى ومنطقه المحدود وإدراكه الجزئى . ومن نفس المفهوم الإسلامى فإن البحث العلمى الاجتماعى الإسلامى ينطلق فى ثقة إلى النظر فى الحياة والخلائق والكائنات والفطرات والطبائع باحثاً عن الحقيقة الموضوعية بإرشاد الوحى ومقاصده لايتخبط ولاتنحرف به الجزئيات والأهواء عن جادة الحق والصواب .

(٤) فى قضايا المقدمات الخاصة للعلوم الاجتماعية والإنسانية الإسلامية :

إن على البحث العلمى الإسلامى أن يتبين المقدمات والكليات والقضايا المنهجية الخاصة فى كل مجال من مجالات المعرفة . ولاشك أن التمييز بين المجالات العلمية المختلفة سوف ينمو ويتطور بنمو البحث وتطور المجتمعات والإمكانات . وينبغى علينا أن نبين أولاً أهمية مجال مايسمى فى المعرفة الغربية المعاصرة باسم العلوم السلوكية ويقصد بها علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الإنسان ، فيجب أن نبدأ بإسلامية مجالها وتقديم قضاياها الأساسية من منظور إسلامى . ولبلوغ هذه الغاية فلابد من إقامة المراكز والأقسام وتخطيط البرامج للدراسة والأقسام وتخطيط البرامج للدراسة والبحث فى هذه المجالات حتى يبلور العلماء والمفكرون المسلمون الرؤية الإسلامية الصحيحة فى هذه المجالات .

أ - الإسلام وعلم التربية :

أقبل المسلمون على علوم التربية والإدارة بعد أن كلّ سعيهم خلف طلب العلوم الفيزيائية والعسكرية والقانونية والسياسية والفلسفية . ثم عملوا على إسلامية بعض العلوم الاجتماعية التطبيقية الهامة وهى علوم الاقتصاد والإعلام ، وإنشاء الأقسام ومراكز البحث العلمى لخدمة ذلك الغرض ، إلا أن أى جهد يبذل فى مجالهما لن يستطيع المجتمع المسلم أن يجنى ثماره إذا لم تستقيم تربية الفرد المسلم وتستقيم نشأته وتكوينه

النفسي . ولذلك فيجب أن تحظى الدراسات التربوية والسياسية باهتمام جهود العاملين فى إسلامية المعرفة . ولعله من المفيد أن نوجه النظر إلى أن من أهم المعالم البارزة للشخصية الإسلامية فى عصورها المتأخرة هو المغايرة والتناقض بين ماتدعيه كوادر الأمة والعاملين فيها وبين مايتحقق من سلوك الأمة وطاقاتها ومكاناتها . ورغم أن المسلمين على قناعة راسخة بسمو الإسلام ، إلا أنه يكاد يكون فى حياة المسلمين أسطورة مثالية يتغنون بها ، وحتى الممارسات الفردية والصفات والسلوك الإسلامى فى حياة المسلمين كثيراً ماتكون على غير النمط المتكامل السليم حتى أنها تفقد تلك النماذج والصفات قدرتها على التأثير والعطاء وينجم عنها نماذج مختلة قاصرة . إن حل معضلات التربية فى المجتمع المسلم لايتأتى إلا بنشأة علم منهجي ودراسة علمية منظمة مستمرة دون التأملات الفكرية العشوائية المحدودة . إن غرس القيم والمبادىء والتصورات الإسلامية الأساسية فى نفوس الناشئة لايتم بأسلوب يناسب حاجة تكوين نفوسهم والمرحلة التى يمرون بها ، إنما يتم على نمط واحد يصلح للبالغين مبلغ الرجال . إن الخطاب التربوى التوجيهى إلى الصغير هو بالدرجة الأولى عملية تكوين وبناء نفسى أساسى ، أما الخطاب إلى البالغ فهو عملية وعظ وتوجيه ذهنى وعقلى ، إن أسلوب الخطاب وتأثيره فى البناء والنفس فى مراحل الطفولة مرحلة إثر مرحلة وعاماً بعد عام وطوراً بعد طور على نحو مانرى من تطور الجسد ونموه ، هو من أهم أمور التربية التى يجب أن ندرك طبيعته ومدى تأثيره فى بناء نفسية الطفل وضرورة اختلاف صفات هذا الخطاب عن أسلوب خطاب

البالغين ووعظهم وتوجيههم . إن الطفل الناشىء إنما يحتاج منا ولا شك إلى خطاب يبنى ويكون ويغرس فى نفسه الصفات والطاقات النفسية الإيجابية التى تدفعه إلى التحلى بالقوة والثقة والاعتزاز والمبادرة ومايتصل بها من صفات لازمة لنجاح الأمة . أى أن تلقين الصغير لمبادىء الدين وقيمه وغاياته وعقائده يجب أن تكون فى مراحل التكوين الأولى إيجابية تنمى مشاعر الحب والشوق والتطلع والإنجاز . فإذا ما بلغ الصغير مبلغ التمييز وخطا نحو الشباب والتكليف والمسئولية ، أخذه المربى بالنصح والتبصير بالعواقب والمسئوليات والآثار المترتبة على الأفعال فيمكن من نفسه حس المسئولية وضبط النفس وحسن الأداء واحترام الحقوق وتقديس الحرمات والسعى فى الأرض بالعدل والإصلاح . ومن المهم فى مقدمات علم التربية الإسلامية أن يدرس الباحثون المنهج العلمى للرسول ﷺ والأسلوب العملى والفعلى الذى مارسه فى تصرفاته مع الصغار من أبنائه وأبناء المسلمين ، وما أثر عنه ﷺ من اتباع أسلوب الحب والرحمة والصبر والأناة فى تربيتهم والتعامل معهم حتى لو كان فى الصلاة أو على ظهر المنبر . وينبغى علينا أن نوضح أنه لامجال للظن بالتناقض بين مفهوم الإيجابية والحب والقناعة فى تكوين الكيان النفس للناشئة وبين مفهوم الانضباط فى سلوكهم وتكوينهم النفسى .

ب - **الإسلامية وعلم السياسة** : إن تحقيق معنى الأمة وبناء كيانها لايتحقق إلا من خلال بناء المؤسسات السياسية التى تلائم واقعها وقيمها وتمكن أبناء الأمة من المساهمة فى بنائها وتحقيق حاجاتها . فإذا شئنا

تصحيح مسيرة الأمة السياسية ونوعية قيادتها ومؤسساتها وأسلوب أدائها ، فإن ذلك يكمن فى نوعية الفكر والتربية النفسية والتوعية العقيدية والاجتماعية والسياسية التى نلقنها لأبنائنا وندربهم عليها . إن الحياة السياسية الإسلامية السوية لابد أن تستند إلى أمة ذات فكر سليم ورؤية حضارية سليمة ، وتستند قياداتها ومؤسساتها السياسية إلى ثقة ومشاركة أفرادها فى إدارة شئونها ، فيجب أن تعيننا الدراسة العلمية السياسية على إسترداد حيوية مؤسساتنا السياسية والتزام قياداتنا السياسية الإسلامى ، وأن تعين هذه الدراسات أبناء الأمة على رؤية طريقهم والقيام بأدوارهم . ففى مجال الدراسات العلمية السياسية الإسلامية يجب التفرقة بين حرف منطوق الوحى وبين اجتهادات الدراسات الأكاديمية وبين قرارات التشريع الاجتماعى والسياسى الحركى . فالوحى هو ماأنزله الله من كتاب وما بلغه رسوله الكريم من أمر وإرشاد دون زيادة أو نقص . أما التشريع الحركى السياسى والاجتماعى فهو التزام الأمة بالدين وغاياته وتطبيق ذلك على واقع الأمة ، وتصدر بها التشريعات والأنظمة والإجراءات المناسبة لحركة الأمة ، وهذه الأنظمة والتشريعات الحركية هى قانون ملزم لأفراد الأمة فى حركتهم الحياتية الجماعية ، وهذا لايمنع من وجود قناعات فردية تغاير فى جزء أو آخر الرؤية السياسية العامة للأمة ، ولكن ذلك لايغير من واجب الالتزام بالأنظمة والتشريعات العامة حتى تتغير تلك القناعات والتشريعات . أما الدراسات الأكاديمية للمفكرين والعلماء والدارسين فهى تمثل مصدر ثروة وإمداد للأمة بالزاد عند النظر

والتمحيص ، والدراسة فى مختلف الميادين عامة بما فى ذلك التشريعات الحركية السياسية على وجه الخصوص، واختلاف وجهات نظر الدارسين والعلماء والباحثين فيما بينهم بما يصدرون من رأى وتقييم للتشريعات العامة السياسية والاجتماعية الحركية لايقلل من قيمة رأى أى من أطراف هذه القضايا إذا نظر إليه النظرة الصحيحة .

وفى نهاية الأمر فإن كافة العناصر الثلاثة إنما تتفاعل وتتكامل وتتداخل لتدفع المسيرة التاريخية للأمة باتجاه الإسلام وغايته ورسالته . وتعتبر الأمة الإسلامية الحق والعدل واجب مقدس ، وتعتبر الحق والحقيقة التى تتلمسها فى الوحى والفطرة والعقل حقيقة موضوعية ، وتعتبر المشورة منهجاً أساسياً للوصول إلى ذلك الحق وتلك الحقيقة . ومن هنا فإن مفهوم الحقيقة الموضوعية لايتحقق بالمواجهة والقولبة الحزبية الغربية ولابالاستبداد الشرقى الماركسى . ولاشك أن النظام الإسلامى سوف يتميز بشروط ومؤهلات عقيدية أيديولوجية دستورية خاصة يجب أن تتوفر ضماناتها والخبرة بأدائها فى أسلوب التربية والتثقيف والتوعية السياسية ، وفى طريقة عمل النظام السياسى الإسلامى ومؤسساته السياسية والتشريعية . ومع تعاظم واتساع حجم الأمة الإسلامية ونموها حيث أصبحت تشمل مجتمعات ذات بيئات طبيعية وتاريخية وحضارية مختلفة ، فإن توزيع مسئوليات الحكم فى البلاد الإسلامية على مستويات مختلفة من المدينة والقرية إلى المقاطعة والولاية قد يكون مما يناسب الأوضاع القائمة اليوم فى الأمة الإسلامية . ولذلك ينبغى أن توفر لنا المقدمات الإسلامية لعلم السياسة الإسلامية الفهم الصحيح لنظام

الخلافة . فلم يكن نظاماً سياسياً جامداً قام على مركزية السلطة والحاكم بل نظاماً حركياً يهدف إلى رعاية مصالح الأمة الدينية والدنيوية ، وعلى هذا الأساس فليس هناك مايمنع من إعادة النظر الإسلامى فى الأنظمة والإجراءات والمؤسسات الإسلامية لإعادة تشكيلها بما يخدم مصالح الأمة . وليس فى نظام مجتمع الإسلام خيالية واقعية ، ولكن هناك حق وهداية واستقامة فى مقابل فساد وانحراف وضلال تتراوح بينهما الأحوال والأعمال بقدر مايصيب النفوس والمجتمعات من حس المسئولية وجدية السعى وحسن الأداء . إن الفكر السياسى الذى تفتح فى عهود رجال عظام كالإمام « الماوردى » وشيخ الإسلام « ابن تيمية » والفيلسوف المفكر « الفارابى » والسياسى الفقيه الفيلسوف « ابن خلدون » يجب أن ينبعث وينمو ويتطور ويستكمل دراساته العلمية المنهجية فى خدمة الدين والأمة ودورها الحضارى الرائد بين الأمم إن شاء الله .

ج - **الإسلامية والعلوم التقنية** : أقبل المثقفون المسلمون على الحضارة الغربية فى مرحلة سابقة من حياة الأمة ، واعتنقوا المبدأ القائل بموضوعية وحيادية الفكر الغربى وعالمية تطبيقاته ، ثم عادوا إلى الإعتراف بخصوصية هذه الحضارة وانبثاقها من عقائد وتوجيهات الإنسان الغربى حيث انتهت إلى حضارة مادية تؤله الفرد وشهواته بعد مافقدت ثقتها فيما لديها من بقايا الرسائل والوحى الإلهى . إن الأمة الإسلامية ومثقفيها وعلمائها مطالبون بالوعى الكامل علي طبيعة الحضارة الغربية

وخصوصياتها وجذورها وإيجابياتها وسلبياتها فى كافة مجالات عطائها الإجتماعى والتقنى ، وذلك بإحكام المنهج الإسلامى السليم فى الإفادة من هذه الإنجازات والإيجابيات وتلافى وجوه النقص والسلبيات . إن تكامل الوحى الكلى والعقل الجزئى فى بناء المعرفة الإنسانية هو أهم وجوه العطاء الإسلامى للحضارة الإنسانية وترشيد مسيرتها فى عالمنا اليوم . إن الإسلامية فى العلوم عامة وفى العلوم الطبيعية والتقنية خاصة تعنى فى الجوهر سلامة التوجه وسلامة الغاية وسلامة الفلسفة التى تتوخاها أبحاث تلك العلوم واهتماماتها وتطبيقاتها وابداعاتها فيصبح العلم الإسلامى علماً إصلاحياً إعمارياً توحيدياً أخلاقياً راشداً . إن مهمة الإسلامية فى ميدان العلوم التقنية تعنى تعديل اللغة والإطار الفكرى العقيدى لمصادر المعرفة العلمية الأجنبية التى تقدم هذه المادة العلمية ، ووضعها فى دائرة الإطار الإسلامى وقيمه وغاياته . إن تصعيد طاقة الأمة وتجنيد امكانتها لخدمة أهدافها وحضارتها إنما يعتمد أساساً على مايقدم ويغرس فى نفوس الصغار والناشئة من أبنائها . وهذه هى مهمة القادة التربويين فى البلاد الإسلامية وهى مهمة متشعبة الأطراف تتضمن وضع مناهج كتب دراسة العلوم على أبسط مستوياتها بحيث تعكس الرؤية والمفاهيم الإسلامية .

(٥) الإسلامية والمؤسسات العلمية : إن المؤسسات العلمية والتعليمية هى المعقل الأول الذى تنشأ فيه القوى والطاقات اللازمة من العلماء والدارسين المبدعين ، الذين يقدمون للأمة وسائلها وكوادرها

العلمية الجيدة . يجب أن تبدأ إسلامية المعرفة بالعمل على وضع المنهجية الإسلامية المطلوبة فى مختلف مجالات العلم والمعرفة ووضع مقدماتها ومداخلها العامة والأساسية كمنطلق للدراسة والإجتهاد العلمى والحضارى الإسلامى . إن الخطوة الأساسية الأولى المطلوبة لإسلامية المعرفة هى أن تقوم المؤسسات العلمية الإسلامية بعدد من المهام منها :

(أ) تحقيق وتبويب نصوص الوحى من قرآن وسنة صحيحة ، وتيسير فهمها وإدراك مقاصدها للدارسين المثقفين .

(ب) تحقيق وتبويب الجيد من أمهات التراث الإسلامى الموسوعى والمتخصص .

(ج) على المؤسسات العلمية والتعليمية والجامعات تجنيد العلماء الأكفاء ممن لهم باع فى التخصص الاجتماعى ودراية بالتراث الإسلامى ، للعمل والبحث العلمى المنظم المتواصل المتخصص فى كل جانب وكل قضية من قضايا العلوم والمجالات العلمية حتى تتضح الرؤية العلمية والإسلامية ويمكن على أساسها تقديم علوم ومنهجيات وكتب دراسية متكاملة ، تحل تدريجياً محل المناهج والتصورات الأجنبية .

(د) إن على المؤسسات العلمية والإسلامية أن تقوم بعملية التوعية العامة لقيادات الأمة ومثقفيها وعلمائها ، وتوضيح قضايا إسلامية المعرفة أمام أنظارهم . وأن تيسر أيضاً مهمة قيام الجمعيات العلمية ، وإصدار الدوريات العلمية المتخصصة ، التى تعتبر وسيلة أساسية لتنشيط المشاركة العلمية والتشجع عليها .

(هـ) إن على المؤسسات العلمية الإسلامية أن ترعى الطلاب والباحثين المغتربين حتى تأتى دراساتهم وأبحاثهم فى خدمة أصالة المعرفة من منظور إسلامى أصيل حتى لايضعف انتماؤهم للفكر الإسلامى والأصالة العلمية الإسلامية .

خاتمة

الإسلام والمستقبل

إن الإصلاح الإسلامى هو خدمة للأمة وللإنسانية على حد سواء ، ولذلك يجب أن توجه جهود العاملين الإسلاميين والقياديين إلى أمرين أساسيين : الأول مستقبلية بناء الأمة : إن الجيل القائم من أبناء الأمة الإسلامية يتمثل دوره الأساسى فى إدراك طبيعة الساحة ومواقع العمل وإمكاناته . إن قدرة هذا الجيل على التغيير فى كيان الأمة تكمن فى العمل المستقبلى وإعداد الأجيال الناشئة نفسياً وفكرياً لأداء دورها الإسلامى والحضارى . ويخطىء ذلك الجيل إذا ظن فى نفسه القدرة على مواجهة التحديات الحضارية والسياسية والعسكرية وذلك بسبب أخطاء تكوينه النفسى التى يصعب تغييرها فى هذه المرحلة من مراحل التكوين البشرى . **وأصبح من الواجب أن تتركز الجهود لتحقيق مايلى :**

(١) توفير الطاقة للبناء والحماية من الاستنزاف :

إن جوهر أعمال البناء المستقبلى يأتى أولاً فى الساحة الفكرية والتربوية لتوليد الطاقة اللازمة لحسم معارك الأمة . هذه المعارك التى لا يجب أن يبذل فيها إلا بما يكفى للحماية والإصلاح وليس وسيلة لاستنزاف الطاقات وحتى لاتزداد ضعفاً على ضعف .

(٢) توليد الفكر والمفاهيم والمعرفة والرؤية الإسلامية الصحيحة ، وذلك بالعمل على تجديد البناء النفسي وتنمية مفاهيم الطاقة الحضارية . وينبغي على مفكرى الأمة وعلمائها أن يكرسوا جهودهم لدراسة أسباب انحراف مسيرة الأمة والعمل على وضعها على الجادة السليمة من جديد من أجل بناء مستقبل مبدع . وتقع على عاتقهم إيضاً مسئولية إصلاح منهجية الفكر الإسلامي وتحقيق الأصالة الشمولية العلمية ، وتأصيل المعرفة والعلوم الاجتماعية الإنسانية من منظور إسلامي فى الفكر الإسلامي المعاصر .

(٣) بناء الوعي لدى القادة والمربين والآباء على أهمية الجهود التربوية الصحيحة فى بناء الشخصية الإسلامية القوية والكيان النفسى السوى ، خصوصاً فى مراحل التعليم المبكرة بدءاً من المنزل ومدارس الحضانة ومايتبعها من مراحل التعليم العام ، وعلى الأمة أن تبدأ بالعمل لإعداد رجال الغد وقوة الشباب .

الثانى : مستقبل مسيرة الإنسانية : إن مستقبل الإنسانية القلق المهدد على المدى المنظور ، رهن بنجاح الأمة الإسلامية فى إصلاح مناهجها وتقديم النموذج الإسلامى الحى ، الذى يقدم البديل للحضارة الغربية المعاصرة ، وذلك بما يمنحه للإنسان من غائية الوجود المقنعة ، ومايقدمه للإنسانية من أسس الاستقرار الاجتماعى والسلام والأمن العالمى . فإذا أقام المسلمون مجتمعاً نموذجياً يقدم القدوة والمثال ، فإنهم لن يستنقذوا

حضارتهم ومجتمعهم فحسب ، ولكنهم بذلك يستنقذون حضارة الإنسان على الأرض ورسالته فى الإصلاح والإعمار ويقيمون مجتمع الخلافة الذى أمر به الله على هذه الأرض.

صدر في هذه السلسلة :

١ ـ محمد المبارك : نظام الإسلام العقائدى فى العصر الحديث .

٢ ـ د . طه جابر العلوانى : خواطر فى الأزمة الفكرية والمأزق الحضارى للأمة الإسلامية .

٣ ـ محمد معين صديقى : الأسس الإسلامية للعلم .

٤ ـ د . عبد الحميد أبو سليمان : قضية المنهجية فى الفكر الإسلامى .

٥ ـ د . إسماعيل الفاروق : صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية .

٦ ـ د . زغلول راغب النجار : أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية .